

# التقرير اليومي

2007/6/14

مختارات من الصحف ومراكز الدراسات الدولية

## تحالف سوريا مع إيران

معهد الولايات المتحدة للسلام؛ أيار 2007

### موجز USI Peace

هذه هي السلسلة الخامسة لوثائق USI Peace الموجزة حول سوريا، والتي نشرها مركز تحليل ومنع الصراع التابع للمعهد. وهذا الموجز كتبته منى يعقوبيان، مديرة "مجموعة عمل سوريا" التابعة للمعهد ومستشارة خاصة لـ "مبادرة العالم الإسلامي"، وهو مبني على أساس مناقشات في حلقة بحث عُقدت مؤخراً في المعهد. إن وجهات النظر المعبر عنها لا تعكس تلك التي لـ USIP، التي لا تأخذ مواقف سياسية.

في مقابل خلفية حالة عدم الاستقرار المتزايدة في الشرق الأوسط، وبرغم الضغط المتزايد من الغرب، يبدو تحالف سوريا مع إيران متمسكاً بقوة، وربما يكون آخذاً بالتعمق أكثر. وكانت الولايات المتحدة قد إنتقدت، وبقوة، كل من سوريا وإيران بسبب المساهمة بتفجر المنطقة، وتحديدًا بسبب لعبهما دوراً مزعماً للاستقرار في كل من الصراعات الإقليمية الثلاث: العراق، لبنان وفلسطين. إن المقدمات الأميركية الأخيرة لكل من سوريا وإيران ترفع السؤال عما إذا كان بالإمكان حث أي من البلدين على التخلي عن تحالفهما الطويل وتبني دور بناء أكثر في المنطقة.

### النقاط الرئيسية:

- على إمتداد أكثر من ربع قرن، أثبت تحالف سوريا مع إيران بأنه متين تماماً. فقد ضمن إتساع التحالف بأن لا تكون العلاقة الشائبة عبارة عن "زواج إقتناع" تكتيكي فحسب، حيث تشهد العلاقات العميقة في مختلف المجالات- الإستراتيجية، السياسية، الإقتصادية والثقافية- على القوة المتنامية للتحالف.

- تتشعب وتتباعد المصالح الثنائية في مسائل أساسية معينة. فالأكثرية السنية للشعب السوري لم تتحمس، بشكل بارز، للتحالف مع إيران الشيعية، والعكس بالعكس. كما أنّ كلّ من البلدين قلق من إستخدامه "كقطعة مساومة" إذا ما كان البلد الآخر يسعى لصنع صفقة مع الغرب.
- في حين أنّ مصالح كلا البلدين يمكن أن تتباعد في المدى الطويل، فإنّ كوكبة القيادة الحالية في كل من دمشق وطهران تضمن بأنّ التحالف سيستمر بالصمود على مدى السنوات القليلة المقبلة، مع عدائهما المشترك تجاه الولايات المتحدة، تحديداً.
- إنّ الجهود المبذولة لدق "إسفين" بين سوريا وإيران لن تكون ناجحة بظل الظروف الحالية على الأرجح. وفي حين قد يشارك الحليفان بالمفاوضات مع الغرب حول العراق وقضايا إقليمية أخرى، فإنّهما لن يتخليا عن تحالفهما الطويل والقديم - على الأقل في المدى القصير.

### تخالف صامد

وبسبب التقييد والإلتزام المتزايد أكثر فأكثر بسلسلة من المصالح المتضاربة في الشرق الأوسط، ونفورهما المشترك من الغرب، فقد عملت كل من سوريا وإيران على صياغة تحالف صامد حل مكان الخلافات الأساسية التي تقسم البلدين (مثلاً، العرب ضد الفرس، العلمانية ضد الدين، الأكثرية السنية ضد الشيعة). وفي حين كان البلدان حليفين منذ أواخر السبعينات، فقد تعزز تحالفهما بشكل لافت على مدى السنوات الثلاث الماضية عندما كانت كل من إيران وسوريا تواجهان عزلة متزايدة من قِبَل الغرب.

ويعارض كلا البلدين، وبقوة، الدور الأميركي في العراق؛ كلاهما يدعم حزب الله في لبنان وحماس في فلسطين. وبالواقع، فإنّ البلدين مرتبطان بعداء مشترك تجاه الولايات المتحدة ويسعيان، بدلاً من ذلك، الى تحديد نظام شرق أوسطي جديد يرفض النفوذ الأميركي في المنطقة.

وقد تزايد التعاون بين البلدين في مجالات عدة. عسكرياً، وقع البلدان إتفاقية دفاع مشترك في حزيران 2006 (وهو نص لم يُنشر مطلقاً)، بالإضافة الى إتفاقية تعاون عسكري إضافية في آذار 2007 (وفي وقت سابق، في 2004، كان البلدان قد وقعا أيضاً إتفاقية "تعاون إستراتيجي"). ويتضمن التعاون الأمني والعسكري، على ما قيل، مبيعات صواريخ إيرانية الى سوريا أيضاً، كما يتضمن تعاوناً إستخباراتياً مستمراً مع طهران الذي، بحسب ما قيل، يوفر التجهيز والتدريب للعملاء السوريين.

وقد تزايد الإستثمار الإيراني في سوريا الى مستويات قياسية على مدى السنوات القليلة الماضية. فقد وقع البلدان إتفاقيات تعاون تجاري وإقتصادي عبر قطاعات متعددة، بدءاً بالإتصالات الى النفط فالزراعة، وهو ما يمثل 1-3 مليار دولار من الإستثمار الإيراني الجديد. وتتضمن المشاريع السورية- الإيرانية الجريئة المشتركة مصنعا للسيارات بقيمة 60 مليون دولار تم إفتتاحه حديثاً، وهو ما يشكل المصنع السوري الأول للمركبات الآلية المنتجة محلياً، كما يتضمن شراء أسطول جديد من الباصات من إيران. وهناك خطط أيضاً لإنشاء مصافي نفط، أهراءات قمح، معمل للإسمنت، وكذلك خطط لتحديث أبواب النفط كركوك- بانياس، الذي بإمكانه حمل النفط من العراق المجاور الى الساحل السوري.

كما أنّ التعاون والتبادل الثقافي في إرتفاع أيضاً. وتشغلّ إيران حالياً مركزين ثقافيين، على الأقل، (في دمشق واللاذقية) وتصب ملايين الدولارات للمحافظة على المواقع الشيعية المقدسة الموجودة على إمتداد سوريا. وهناك ما يقدر بـ 500,000 الى مليون من السياح الإيرانيين الذين يحجون الى هذه المواقع المقدسة سنوياً. كما هناك أموال إيرانية خاصة تقوم، أيضاً، بتمويل عدد من الحوزات، حلقات

الدرس والبحث الشيعة عبر سوريا. أما الشائعات التي تدور حول سوريا، فهي أنّ الحجاج الإيرانيين الأغنياء يدفعون للسوريين للتحويل إلى الإسلام الشيعي، وهو ما يشكل على الأرجح عنصر مشؤوم للتعاون الثقافي.

### مصادر التوتر المحتملة

وعلى المدى الطويل، هناك مصادر توتر عديدة محتملة بإمكانها أن تضعف التحالف السوري- الإيراني. فعلى سبيل المثال، يشكل الانقسام الشيعي الضمني بين الأكثرية السنية السورية وإيران الشيعية- إلى حد كبير- مجالاً أساسياً من التباعد. فالجهود الإيرانية لنشر النفوذ الديني الشيعي يمكن أن يضرم النار في سوريا بسهولة، حيث التزعة الإسلامية السلفية، في تطرفها الأقصى، تعتبر الشيعة مرتدين عن الإسلام- وهذه التزعة في إرتفاع.

ومع الإلتفات الكامل للتوتر الطائفي الذي يغلي تحت السطح، يبقى النظام السوري قلقاً من المحاولات الإيرانية نشر التأثير الديني والثقافي الشيعي في سوريا. وكونه آتٍ من طائفة أقلية (العلويين- وهم فرع من الشيعة)، فمن المرجح أن يدرك الرئيس السوري بشار الأسد بأنّ إذكاء المشاعر الطائفية يشكل خطراً عليه. وبشكل أوسع، وعلى المستوى الشيعي، لا يبدو الشعب السوري ولا نظيره الإيراني متعلقان بعمق بهذا التحالف.

وبالواقع، تعتبر العناصر الأساسية في كل من الشعبين السوري والإيراني الشراكة مع الغرب أمراً شديداً الأهمية لإنهاء عزلة بلديهما. ولذلك، فهما ينظران إلى التحالف السوري- الإيراني بمشاعر مختلطة، في أفضل الأحوال.

أما إستراتيجياً، وعلى المدى الطويل، فإنّ التحالف يمكن أن يرتطم بالأرض إذا ما قام أي من الشريكين بالسعي "لبيع" الآخر بإسم تحسين العلاقات مع الغرب. فعلى سبيل المثال، يتوقع بعض المحللين بأنّ إيران قد تفاوض على صفقة بخصوص برنامجها النووي، الأمر الذي قد يحتم عليها الإمتناع عن تحالفها مع دمشق. وبطريقة مشابهة، فإنّ سوريا قد تعقد صفقة مع الغرب للتخفيف من عزلتها أو لضمان بقاء النظام. إنّ إتفاقاً كهذا قد ينتهي بتخلي دمشق عن الأسهم الإيرانية (حزب الله تحديداً) في لبنان أو في قيام سوريا بصنع سلام مع إسرائيل. ففي الحالة الأولى، تعتبر علاقة إيران مع حزب الله، والتي يسهلها دور "الوسيط" السوري، إحدى أهم عناصر تحالف طهران مع دمشق. فلا يمكن، بالتأكيد، التضحية بها من وجهة نظر طهران.

أما في الحالة الأخيرة، فقد كانت دمشق قد أعلنت عن رغبتها بإستئناف المفاوضات مع إسرائيل، في حين كان الرئيس الإيراني أحمددي نجاد قد دعا إلى "محو إسرائيل عن الخريطة". وفي حين أن هذين الإحتمالين بعيدين، فإنّ أي سيناريو من الإثنين- تخلي سوريا عن حزب الله أو صنع سلام مع إسرائيل- سوف يؤدي إلى انفجار خطير، وربما قاتل، للتحالف. وعلى كل حال، لا يزال كلا الجانبين قلقان، على الأرجح، من تخلي الآخر عنه بإسم تحسين العلاقات مع الغرب.

### لا إسفينين بين الإثنين حتى الآن

وفي حين تعتبر مصادر التوتر المحتملة موجودة، فإنّ تحالف سوريا مع إيران سيصمد بقوة في المستقبل القريب إلى المتوسط، على الأرجح. وبالرغم أنّ إيران قد تكون هي "الشريك الكبير" في التحالف، فإنّ كلاً من دمشق وطهران لا تزالان ثابتتين في عدائهما المشترك للولايات المتحدة وعدم ثقتهما بها.

أما المحاولات المبدولة لـ "نزع" أحد الشريكين بعيداً عن التحالف، فمن غير المرجح أن تنجح، وذلك لعدد من الأسباب. أولاً، بذلت إيران جهوداً هامة لترسيخ التحالف، بإستثمارها ملايين الدولارات وتمتينها العلاقات عبر عدد من المجالات.

فشبكة العلاقات العسكرية، السياسية والإقتصادية الناتجة سيكون من الصعب حلها، أكثر فأكثر. وبمرور الوقت، فإنّ هذه العلاقات- تحديداً العلاقات الإقتصادية- سوف تتعزز بشكل مشترك، على الأرجح، مما سيؤدي الى تحصين العلاقة أكثر. وبالواقع، قد يعتمد العمال السوريون، أكثر فأكثر، على الإستثمار الإيراني للتدريب والوظائف. بالإضافة الى ذلك، فإنّ بإمكان مشاريع البنية التحتية، كخطوط الأنابيب وسكك الحديد التي تربط، وبالمعنى الحرفي للكلمة، البلدين، أن ترسخ العلاقات أكثر.

ثانياً، إنّ القيادة الحالية في كل من دمشق وطهران هي قيادة أكثر تشدداً، حتماً، وأقل ميلاً للحوار مع الغرب. وطالما أنّ كلاً من أهدي نجاد والأسد موجودين في السلطة، فإنّ التحالف سيظل أولوية أساسية بالنسبة للحكومتين، على الأرجح. فهؤلاء المتشددون وجهاهيرهم المتحصنة، معاً، سيساعدون بدفع التحالف الى الأمام. وفي حين أنّ مراكز السلطة في إيران أكثر إنقساماً وإنتشاراً، يبدو المتشددون، كالرئيس أهدي نجاد، ممسكون بزمام السيطرة بخصوص تعميق علاقات إيران مع سوريا. فبالنسبة لهم، يعتبر التحالف دلالة على إيديولوجية أعمق ترفض، بالكامل، الغرب وتعتبر الولايات المتحدة عدواً أساسياً في المنطقة.

وفي هذه الأثناء، كان الرئيس السوري بشار الأسد قد إتخذ قراراً واضحاً بالتحالف الوثيق جداً مع إيران أكثر مما فعل والده، حافظ الأسد، الذي ساعد على بدء التحالف قبل 30 عاماً مضت. إنّ علاقات سوريا المعمقة أكثر مع إيران تحدر من تحالف دمشق المتنامي مع حزب الله (وإعتماها عليه)، ومن كارثتها الإقتصادية الخطيرة، ومن عزلتها المستمرة عن الغرب. وبالواقع، فإنّ بشار كان قد شجع على تفتح العلاقة وإزدهارها على حساب التحالفات العربية لسوريا- مما ربط، ربما، دمشق مع طهران بشكل وثيق جداً حتى.

أخيراً، يبدو أنّ تحدي سوريا وإيران يتنامى، أكثر فأكثر، بوجه المصاعب الأميركية في العراق، وبوجه الحكومة الموالية للغرب والضعيفة للغاية في لبنان، وكذلك بتصعيد التوتر بين الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية. وفي كل مثل من هذه الأمثلة، تدرك كل من سوريا وإيران الخيارات المحتملة لتعميق نفوذهما والتنسب بتراجع إنتشار النفوذ الأميركي في المنطقة. لذلك، فمن غير المرجح أن تتراجعا عن التحالف، وإنما يمكن أن نتوقع، بدلاً من ذلك، تسريع وتعميق العلاقات في الوقت الذي يواصلان تنفيذ أجندتهما المشتركة في المنطقة.

إنّ هذه العوامل، بتناولها معاً، تطرح التالي: إنّ إستثماراً ما لرأسمال دبلوماسي هام قد يكون أمراً ضرورياً لدق إسفين بين سوريا وإيران. ورغم أنّ سوريا قد تكون الشريك الأضعف في العلاقة، فإنّ مسألة "قذف" دمشق بعيداً- بإغرائها للإبتعاد عن التحالف مع طهران- سيكون مشروعاً صعباً. وفي حين أنّ هناك مصالح متباعدة واضحة تقسّم البلدين، يبدو، في هذه المرحلة، بأنّ ما يربط الحليفين هو أكثر مما يفرقهما.

